

الفصل الأول

فيما وراء ترويض التعليم

حوار(*)

(*) تم إجراء هذا الحوار في يونيو ١٩٩٩ م.

(١)

دونالدو ماسيدو : أثار اهتمامي منذ عدة سنوات ماضية قضية تأديب تم رفعها على طالب في الثانية عشرة من عمره، يدرس بمدرسة بوسطن لاتين (Boston Latin) وكان هذا الطالب يدعى «دافيد سپريتزلر»، وأقيمت هذه الدعوى القضائية ضده؛ لأنه رفض ترديد ميثاق الولاء؛ لاعتباره حُصاً نفاقياً للوطنية، وأنه خاؤ من مبدأ، «الحرية والعدالة للجميع». والسؤال الذي أرغب في أن أوجهه لك هو : لماذا استطاع صبي في الثانية عشرة من عمره أن يرى النفاق في ميثاق الولاء، في حين أن معلميه والقائمين على العملية التعليمية لم يتسن لهم ذلك؟ وما لا أفهمه ويحيرني هو أن المعلمين الذين يجب أن يعتبروا أنفسهم مفكرين - وذلك حسبما تقتضى طبيعة عملهم - لم يستطيعوا، أو رفضوا بكامل إرادتهم، أن يروا ما كان شديد الجلاء لصبي حديث جداً في السن .

ناعوم تشومسكى : ذلك ليس بالأمر المستعصى فهمه، فالحالة التي ذكرتها توأ ما هي إلا دلالة على عمق عملية الترويض التي تحدث في مدارسنا، والتي تجعل من الشخص المتعلم فرداً ليس بمقدوره فهم الأفكار الأولية التي استطاع أن يستوعبها صبي في الثانية عشرة من عمره .

ماسيدو : وما يحيرني أيضاً رغبة معلم على درجة شديدة من الثقافة، وناظر مدرسة، في التضحية بما ينص عليه ميثاق الولاء، في سبيل فرض الطاعة، بإجبار طالب على ترديده .

تشومسكى : لا أرى المسألة محيرة على الإطلاق، ففي الواقع ما حدث للطالب دافيد سپريتزلر شيء متوقع الحدوث في المدارس التي ما هي إلا مؤسسات للترويض، ولفرض الطاعة .

وبعيداً عن مبدأ خلق جيل من المفكرين المستقلين ، فلقد أدت المدارس دوماً على مر عصور التاريخ دوراً مؤسسياً فى منظومة من السيطرة والقسر . وحينما يصبح الفرد على درجة عالية من التعليم ، يتم ترويضه اجتماعياً بطريقة تؤازر هيكل السلطة ، والذي بدوره يكافئه بسخاء .

لنأخذ جامعة «هارفارد» على سبيل المثال : ففي هذه الجامعة الكبرى لا تتعلم الرياضيات فقط ، ولكن وعلاوة على ذلك تتعلم ما هو المتوقع منك أن تتعلمه - بما أنك سوف تصبح أحد خريجي جامعة هارفارد - مثل ما يختص بالسلوك والأسئلة التى لن تسألها على الإطلاق .

ففى هذه الجامعة تتعلم صخب حفلات الكوكتيل ، وكيفية التألق بصورة صحيحة ، وكيفية التحدث بلهجة كل خريجى هذه الجامعة .

ماسيدو : بل وتتعلم أيضاً كيفية الانخراط داخل بناء طبقى معين ، وتعلم ما هى أهداف وطموحات ومثارات اهتمام الطبقة المسيطرة .

تشومسكى : بالطبع ، وفى هذه الحالة هناك فرق شاسع بين من تلقى تعليمه فى جامعة «هارفارد» وآخر تلقى تعليمه فى معهد «ماساتشوستس» للتكنولوجيا .

وبالرغم من أن معهد «ماساتشوستس» للتكنولوجيا مؤسسة يمينية بشكل أكبر ، إلا أنها أكثر انفتاحاً من جامعة «هارفارد» ، وهناك مقولة حول كمبريدج ، توضح هذا الفرق : تدرب جامعة هارفارد من يقومون بحكم العالم ، فى حين أن معهد «ماساتشوستس» للتكنولوجيا يدرب من يقومون بجعله يعمل .

ومن ثم ؛ وكنتيجة لهذا ، يعير القائمون على الأمور اهتماماً أقل للسيطرة الأيديولوجية فى معهد «ماساتشوستس» للتكنولوجيا ، مما أتاح فرصة أكبر لتنمية التفكير المستقل . والشاهد على ما أقوله المنصب الذى أشغله فى هذا المعهد .

فلم أشعر يوماً بأى تدخل فى عملى السياسى أو عملى كناشط ، إلا أن ما أقوله لا أقصد به أن معهد «ماساتشوستس» للتكنولوجيا بؤرة للنشطاء السياسيين ؛ لأنه لا يزال يدور فى فلك دوره المؤسسى الذى يتحاشى جزءاً معتبراً

من حقيقة العالم أو المجتمع . بطريقة أخرى لم يكن أبداً ليقدّر له البقاء لفترة طويلة في حالة ما إذا كان يقوم بتعليم الحقيقة .

وبما أنهم لا يقومون بتعليم حقيقة العالم ، تقوم المدارس على ركيزة قصف الطلبة على رءوسهم بأساليب الدعاية للديمقراطية .

فإذا كانت المدارس حقاً ديمقراطية ، لما كان أبداً هناك داع لإحاطة الطلاب بتفاهات مبتذلة حول الديمقراطية ، ولكانوا وبكل بساطة تصرفوا وعملوا بشكل ديمقراطي ، وكما نعلم فإن ذلك لا يحدث . فكلما زادت الحاجة للحديث حول المثل الديمقراطية ، كانت المنظومة - في أكثر الأحوال - أقل ديمقراطية .

وهذه المسألة معروفة جداً لدى واضعي السياسات ، وفي بعض الأحيان لا يحاولون حتى إخفاءها . فلقد اعتبرت اللجنة الثلاثية المدارس «كمؤسسات» مسئولة عن «ترويض الأحداث» . وأصبحت عملية الترويض لازمة ؛ لأنه تم تصميم المدارس على وجه العموم لدعم اهتمامات القطاع المهيمن من المجتمع ، ألا وهو من بحوزتهم الثروات ويعتلون المناصب السلطوية . ويتم تأهيل الصغار في المراحل الأولى من التعليم اجتماعياً حتى يستوعبوا الحاجة لموازرة هيكل السلطة ، وعلى وجه الخصوص الشركات الضخمة - بمعنى أوضح طبقة رجال الأعمال . والدرس الذي يلقنوك إياه في عملية التأهيل الاجتماعي التي تتم من خلال التعليم هو : إن لم تساند مصالح ذوى الثروات والنفوذ ، لن تستطيع البقاء طويلاً ؛ لأنه سوف يتم استئصالك من المجتمع ، أو تهيمشك .

ونجحت المدارس في «ترويضها للصغار» - وأقولها باقتباس مصطلح اللجنة الثلاثية - عن طريق العمل داخل إطار من الدعاية قادر على تشويه أو إخماد الأفكار أو المعلومات غير المرغوب فيها .

ماسيدو : كيف يتأتى للمفكرين الذين يعملون داخل إطار من الدعاية أن يفلتوا بتورطهم في الأكاذيب التي يروجونها من أجل خدمة مصالح ذوى النفوذ؟
تشومسكى : لا يفلت أى من هؤلاء بأى شيء ؛ لأنهم فى الواقع يؤدون

خدمة متوقعة منهم من قبل المؤسسات التي يعملون لديها، ويؤدون، وبمحض إرادتهم - وربما كانوا يفعلون ذلك دون وعى - متطلبات منظومة الترويض، فذلك أشبه باستئجار نجار وسؤاله بعد إنجازه العمل المطلوب منه، كيف استطاع إنجازه. فلقد تصرف كما هو متوقع منه. وأما بالنسبة للمفكرين فهم يؤدون خدمة مماثلة حيث يتصرفون كما هو متوقع منهم، وذلك عندما يصفوا بشكل دقيق - يمكن السماح به - حقيقة الأمر، التي تتوافق ومصالح ذوى الثروات والنفوذ - وهم من يملكون هذه المؤسسات التي نسميها المدارس، وفي الواقع هم يملكون المجتمع بوجه عام.

ماسيدو: يتضح بجلاء أن المفكرين على مر التاريخ أدوا دوراً مشيناً؛ ليدعموا منظومة الترويض. وبما أنهم يتخذون مواقف غير مشرفة، فهل من الممكن اعتبارهم مفكرين حقيقيين كما يعنى المصطلح؟ فلقد دأبت على الإشارة إلى بعض أساتذة جامعة «هارفارد» بأنهم «مفوضون [سماسرة]»، وأجد أنا أيضاً أن هذا المصطلح ملائم أكثر من «مفكر»، وذلك شريطة تورطهم فى هيكल السلطة وأدوارهم الفعالة فى تعضيد «قيم التمددين» التى نجم عنها فى كثير من المرات نتائج عكسية، مثل البؤس الإنسانى، وإبادة أجناس، والعبودية، واستغلال الشعوب بالجملة.

تشومسكى: سار الوضع على هذا المنوال على مر عصور التاريخ، وعندما نرجع بالذاكرة للعصر الذى ساد فيه الكتاب المقدس، نجد أن المفكرين - الذين تم تسميتهم لاحقاً بـ «الأنبياء المزيفون» - قد عملوا على تحقيق مصالح محددة تخدم ذوى النفوذ.

ونعلم أنه كان هناك بعض المفكرين ممن انشقوا عن هذا الطريق لما لهم من آراء بديلة فيما يختص بشئون العالم، وهم من تمت تسميتهم لاحقاً أيضاً بالأنبياء، وما تلك إلا ترجمة ملتبسة لكلمة مهمة، وكان مصير هؤلاء المفكرين هو التهميش أو التعذيب أو النفى. ولم تتغير الأحوال كثيراً فى العصر الحالى، ففى مجتمعنا يتم تهميش من ينشق من المفكرين، ويتم الفتك بهم بصورة وحشية فى دول مثل

السلفادور . وذلك بالفعل ما حدث للأسقف «روميرو» والمفكرين اليسوعيين الستة الذين تم قتلهم على يد صفوة من قوات القناسة التى دربتها وسلحتها ودعمتها ماليًا الولايات المتحدة، من أموال دافعى الضرائب . وأوضح أحد اليسوعيين من السلفادور فى صحيفته : أنه إذا كان «فاكلاف هافل» فى دولته - وفاكلاف هافل هو سجين سياسى سابق أصبح رئيسًا لدولة تشيكوسلوفاكيا [القديمة] - لم تكن السلطات لتودعه السجن، بل كانوا سوف يمزقونه إربًا، ثم يلقون به على جانب الطريق .

وقام فاكلاف هافل، الذى صار المنشق المقرب والمحبوب لدى الغرب، برد الجميل بسخاء، عندما ألقى خطابًا وجهه للكونجرس الأمريكى بعد بضعة أسابيع من مقتل اليسوعيين الستة بالسلفادور . فبدلاً من أن يعاضد زملاءه المنشقين بالسلفادور، أثنى ، بل مجد دور الكونجرس عندما أطلق عليه اسم : «المدافع عن الحرية» . والفضيحة واضحة للعيان ولا داعى للتعليق .

ولسوف يفضح أى اختبار بسيط مدى هول هذه الفضيحة ، فلتتخذ هذه القضية الوهمية مثلاً : لجوء أمريكى أسود شيوعى للاتحاد السوفيتى - سابقاً - بعد مقتل ستة من كبار المفكرين التشيك على يد قوات أمن مسلحة روسية الجنسية والتدريب، فيذهب للدوما - مجلس التشريع الروسى - ويطرى عليه بتسميته إياه «المدافع عن الحرية» . وعلى هذا الأساس سوف تبنى الولايات المتحدة رد فعلها إزاء هذا الأمر على يد رجال السياسة والمفكرين بشكل سريع، ومتوقع العواقب . فلسوف يتم شجبه لتأييده نظام حكومى فتاك . ويجب أن يوجه المفكرون فى الولايات المتحدة لأنفسهم تساؤلاً عن السبب وراء رد فعلهم المؤيد لتصرفات هافل التى يصعب أن يصدقها عقل، والتى تشابه جداً وتلك القصة الخيالية .

كم عدد المفكرين الأمريكين الذى قرءوا أى شىء كتبه المفكرون فى أمريكا الوسطى، والذين تم اغتيالهم على يد قوات أمريكية بالإنابة؟ وكذلك كم عدد المفكرين الأمريكين الذين يعلمون شيئاً عن هيلدر كمارا - الأسقف البرازيلى الذى تزعم قضية فقراء البرازيل ؟ سوف تجد الأغلبية منهم، صعوبة فى مجرد

التعرف على أسماء المنشقين فى الدول التى تحكمها طبقة طاغية متوحشة، فى أمريكا اللاتينية - أو فى دول أخرى - التى نساندها وندرب قواتها مما يستدعى تعليقاً مثيراً للاهتمام عن ثقافتنا الفكرية . ويتم غض البصر عن الحقائق التى لا تتواءم ومنظومتنا الترويضية، كما لو كانت غير موجودة، فهى - ببساطة - تُحظر .

ماسيدو : هذا «البناء الاجتماعى» الذى يمنع الرؤية، هو السمة التى يتصف بها هؤلاء المفكرون، ولقد وصفهم «پاولو فريرى» بالقائمين على العملية التعليمية الذين يدعون أن لهم مكانة علمية، والذين «قد يحاولون أن يختبئوا تحت عباءة ما يعدونه حيادية الأهداف العلمية، ولا يبالون بكيفية استغلال نتائجهم، ولا يعيرون حتى أدنى اهتمام لاعتبار لمن أو لأى غرض يعملون»^(١) .

وتبعاً لما يصرح به فريرى، فإن هؤلاء المفكرين المستترين تحت شعار الموضوعية «قد يتعاملون مع المجتمع محل الدراسة، كما لو كانوا لا يتمنون إليه . وفى ظل النزاهة والحيادية التى يفتخرون بها، يتعاملون مع العالم كما لو كانوا يرتدون «قفازات وأقنعة»، حتى لا يلوثوه أو يلوثهم»^(٢) . وأضيف أن هؤلاء المفكرين لا يرتدون «قفازات وأقنعة» فقط، لكنهم يضعون أيضاً غمامات على أعينهم تحول بينهم وبين رؤية كل ما هو جلى .

تشومسكى : لست متأكداً أنى أشاطرك الرأى فى نقدك وهجومك ما بعد الحدائى على الموضوعية، المابعد حدائى الصبغة . فلا تعد الموضوعية شيئاً يجب علينا صرف النظر عنه، بل على النقيض يتوجب علينا أن نعمل بكد حتى نتمسك به فى رحلتنا للبحث عن الحقيقة .

ماسيدو : لا أختلف معك فى هذا، ولا يعنى نقدى للموضوعية أنى صرفت النظر عنها، لكن ما ينبغى علينا وضع علامات الاستفهام حوله، هو غطاء الموضوعية الذى يستغله المفكرون لتلافى العوامل التى تتدخل فى تحليلاتهم، والتى يعدونها غير ملائمة، وقد تفضح تورطهم فى عملية حظر الحقيقة؛ لخدمة الأيديولوجيا المهيمنة .

تشومسكى : حقاً يجب أن نشجب بشدة ادعاء الموضوعية كوسيلة للتشويه

وقول الزيف ؛ لخدمة المنظومة الترويضية . واستمر وجود هذا المنهج - وبسهولة أكبر - فى العلوم الاجتماعية ؛ لأن القيود التى يفرضها العالم الخارجى على الباحثين أكثر وهناً ، فتعد عملية الاستيعاب أكثر سطحية ، وكذلك فإن المشكلات التى ينبغى مواجهتها أكثر إبهاماً وتعقيداً .

ونتيجة لهذا كان من السهل جداً أن تتجاهل ، وببساطة ، الأشياء التى لا ترغب فى سماعها ، وهناك بون شاسع بين العلوم الطبيعية ، والعلوم النظرية . ففى العلوم الطبيعية لا تدع حقائق الطبيعة أى باحث ينجح بسهولة فى تجاهل أشياء تتعارض والمعتقدات المحببة ، ومن الصعب جداً الاستمرار فى الخطأ . يسهل اكتشاف الأخطاء فى العلوم الطبيعية ؛ لأنه يمكن تكرار التجارب ، هناك نظام داخلى يرشد المفكر فى مسعاه ، وإن كان لا يوجد ضمان واضح لأن تفضى إلى الحقيقة حتى أكثر الاستعلامات جدية .

وبالعودة لنقطة الحوار الأساسية ، ألا وهى أن المدارس تتحاشى حقائق مهمة . يقع على عاتق المعلمين ؛ لكونهم مفكرين - أو على عاتق أى إنسان مخلص ويتناسب وضعه وهذه القضية - أن يحاولوا المجاهرة بالحقيقة ، وهذه بالطبع مسألة ليست محلاً للجدل ؛ لأنه يتحتم علينا كواجب أخلاقى أن نكتشف الحقيقة ونجاهر بها قدر المستطاع للأفراد المعنيين ، وذلك فيما يتعلق بالأشياء المهمة لنا . ويعد الخوض فى الكلام عن الحقيقة أمام أصحاب النفوذ مضيعة للوقت - وهذا بالمعنى الحرفى للكلمة - وغالباً ما يكون المجهود المبذول ضرباً من ضروب استهلاك الذات .

ويُعدّ من وجهة نظرى مضيعة للوقت ، ومسعى لا طائل منه أن تقول قولاً صادقاً سواء أمام هنرى كيسينجر ، أو لرئيس مجلس إدارة AT & T ، أو لأى فرد ذى نفوذ فى مؤسسات القسر ، وهذا لأنهم غالباً على دراية بالحقيقة .

وعندما يترك أصحاب النفوذ مناصبهم المؤسسية ، والتى كانوا يؤدون فيها دوراً مؤسسياً ، ويثوبون لطبيعتهم كبشر مؤيدين للأخلاق ، قد يصيرون فى هذا الوقت مثل أى فرد آخر .

لكن عندما يؤدون دور من له القدرة على استخدام نفوذه؛ لتدبر الأمور بنجاح، فإنهم لا يستحقون أن نتوجه إليهم بالحديث؛ لأن ذلك يُعدّ مضيعة للوقت، فلا طائل من قول الحقيقة لأصحاب النفوذ مثلما هو الحال مع أسوأ الطغاة والمجرمين الذين هم أيضاً بشر بالرغم من أفعالهم الشنعاء، ففي الحقيقة يُعدّ العمل بمنصب سلطوى مهنة - على وجه الخصوص - غير جديرة بالاحترام.

وينبغي علينا البحث عن مستمعين يستحقون العناء. وفي مجال التدريس هذا الجمهور هو الطلبة، فلا يجب اعتبارهم جمهوراً فقط، لكن جزءاً من جماعة الاهتمام العام [بالمصالح العامة]، يأمل فيه الفرد المشاركة بشكل بناء. فلا ينبغي علينا أن نتحدث إلى شخص ما [بمعنى التلقين]، لكن مع هذا الشخص [بمعنى الحوار]. وتعد هذه طبيعة ثابتة لأي مدرس جيد، وينبغي أن تتوافر أيضاً في أى كاتب ومفكر، حيث يعلم المفكر الجيد أن أفضل وسيلة لمساعدة الطلاب على التعلم هي أن نتركهم يكتشفون بأنفسهم؛ لأن الطالب لا يتعلم عن طريق حفظ المعرفة عن ظهر قلب، وأخيراً تقيؤها. ويأتى التعليم الحقيقى عن طريق اكتشاف الحقيقة، وليس من أسلوب فرض حقيقة رسمية، فلا يفضى ذلك أبداً إلى تطوير فكر مستقل ونقدى.

ويلزم على أى معلم أن يساعد الطلبة على اكتشاف الحقيقة، ولا يحظر المعلومات ووجهات النظر التى قد تسبب إحراجاً لذوى المال والنفوذ الذين يتدعون ويصممون ويقرون سياسات المدارس.

فدعونا نفكر بعمق فيما يعنيه تدريس الحقيقة، ثم يتعين بعد ذلك على الناس أن يميزوا بين الأكاذيب والحقائق.

ولا أظن أن المسألة تتطلب أكثر من حس مشترك، وهو ذاك الحس المشترك الذى يمكننا من اتخاذ موقف نقدى إزاء المنظومات الدعائية للأمم التى نَعُدّها أعداء لنا. واقترحت مسبقاً أنه لن يكون بمقدور أى مفكر أمريكى أن يذكر اسم أى منشق فى النظم الطغيانية الواقعة فى حيز سلطتنا، ولنذكر فيها على سبيل المثال السلطادور. بيد أنه لن يكون لنفس هؤلاء المفكرين أى مشكلة، فى إعطاء

كشف طويل بأسماء المنشقين فى روسيا، ولن تكون هناك مشكلة على الإطلاق فى التمييز فيما بين الأكاذيب والحقيقة، وتعيين التشوهات والانحرافات المستخدمة لحماية سكان الأمة من الحقيقة فى النظم الحكومية المعادية. وتتلاشى المهارات النقدية التى يستخدمونها عند كشف النقاب عن الأكاذيب التى ترونها ما يدعونه بالأمم «المارقة» عند محاولة تطبيقها على الحكومات والطغاة الذين نعصدهم. ولقد ساندت بشدة الطبقات المتعلمة الجهاز الدعائى على مر التاريخ. عادة ما تنجح - وبصورة عظيمة - ما كينة الدعاية فى حظر أو تهميش أى انحراف فى عملية الترويض النقية، وفهم هذا الأمر جيداً هتلر وستالين، وحتى يومنا هذا تتبع وتكافى المجتمعات المغلقة والمفتوحة على حد سواء تورط الطبقة المتعلمة.

ويلقب الخبراء الطبقة المتعلمة بـ «الطبقة المتخصصة»، ويعنى ذلك مجموعة صغيرة من الناس تقوم بالتحليل والتنفيذ، واتخاذ القرارات، وإدارة الأمور فى المنظومات السياسية والاقتصادية، والأيدىولوجية. والطبقة المتخصصة على وجه العموم نسبة من الشعب يلزم حمايتها من عامة الشعب الذى نعتهم «والترليمان» بـ «القطيع المذهل»، وتنفذ الطبقة المتخصصة «الوظائف التنفيذية» مما يعنى أنهم يفكرون ويخططون، ويفهمون «المصالح العامة» التى تعنى مصالح طبقة رجال الأعمال، وتبعاً لمعتقدات ليتمان الليبرالية التى أعرب عنها بوضوح، ينبغى على الغالبية العظمى من الشعب أو «القطيع المذهل» أن يشغلوا منصب «المتفرج» فى منظومتنا الديمقراطية، وليس «المشارك فى الأفعال».

وغالباً ما يتم السماح لأعضاء «القطيع المذهل» أن يشاركوا فى تأييد الزعيم من خلال ما يسمى بـ «الانتخابات»، وفور ما أبدوا تأييدهم لواحد أو أكثر من أبناء الطبقة المتخصصة، وجب عليهم التراجع لتبوء موقع المتفرج مرة أخرى.

وعند محاولة «القطيع المذهل» أن يصبح شيئاً أكثر من متفرج، وذلك عندما يحاول أفراد الشعب أن يشاركوا فى الحركة الديمقراطية، تظهر الطبقة المتخصصة رد فعل إزاء ما تنعته بـ «بأزمة الديمقراطية»؛ ولهذا السبب تعرب الصفوة عن كرهها الشديد لحقبة الستينيات، التى شرعت فيها مجموعات من الشعب التى

طالما تم تهميشها سياسياً، فى تنظيم والاضطلاع بسياسات الطبقة المتخصصة، ولقد تجلّى هذا الموقف على وجه الخصوص فى أثناء حرب فيتنام، وفى السياسة الاجتماعية داخل البلد .

ويلزم الإبقاء على بقية «القطاع المنذهل» فى شكل منتظم بعيداً عن المشكلات، وأن يظل على الدوام، وفى أغلب الأحوال فى موقف المتفرج على الأحداث، بل ويتم تشتيت فكره عن القضايا الحقيقية المهمة . وتعتبر الطبقة المتعلمة أفراد «القطاع المنذهل» شديدي الغباء، لدرجة أنهم لن يتمكنوا من الاضطلاع بأمورهم، ولهذا فهم يحتاجون إلى طبقة متخصصة تتأكد من أنه لن تسنح لهم الفرصة للتصرف على أساس «الإساءة فى الحكم» المتفشية لديهم . وطبقاً للطبقة المتخصصة، يجب حماية السبعين فى المائة، أو أكثر، من الناس الذين يعتقدون أن حرب فيتنام كانت منافية للأخلاق من «إساءتهم فى الحكم» عند معارضتهم للحرب، وينبغى أن يسلموا بالرأى الرسمى القائل بأن حرب فيتنام كانت مجرد خطأ(*) .

ومن اللازم أن تلجأ - بشكل متزايد - الطبقة المتخصصة فى أى مجتمع مفتوح للأساليب الدعائية، والتى نطلق عليها المصطلح اللطيف «العلاقات العامة» وذلك لحماية «القطاع المنذهل» من نفسه، ومن إساءته فى الحكم . وعلى الصعيد الآخر، يتم فى الدول الشمولية إبقاء «القطاع المنذهل» فى موقعه من خلال تسليط مطرقة على رؤوسهم، وإذا حاولوا الخروج عن الطابور، تتحطم رؤوسهم .

وأما فى المجتمعات الديمقراطية، فلا يتم الاعتماد على القوات بشكل صريح للسيطرة على الشعب، ومن ثم كان لابد من الاعتماد بشكل أكبر على الدعاية كوسيلة للسيطرة على عقول العامة، وتصير الطبقة المتعلمة شيئاً لا يمكن

(*) هذا ما قاله روبرت ماكنمارا، وزير الدفاع الأمريكى وقت الحرب، بعد أكثر من عشرين سنة من انتهاء الحرب . ولم يترتب على هذا الاعتراف بالخطأ الذى راح ضحيته ما يقرب من مليون فيتنامى، وتدمير مئات القرى والمدن الفيتنامية، أى نتائج أمريكية رسمية - المترجمة .

الاستغناء عنه فى محاولة السيطرة على عقول العامة . وبالطبع تؤدى المدارس دوراً مهماً فى هذه العملية .

ماسيدو : تفترض تصريحاتك - والتي أوافق عليها - أن الرقابة فى المجتمعات المفتوحة وثيقة الصلة بالنسيج الذى تعتمد عليه الدعاية ومحاولتها للسيطرة على عقول العامة . حسبما أعتقد ، تختلف الرقابة فى المجتمعات المفتوحة اختلافاً كبيراً عن نوع الرقابة التى تتم ممارستها فى المجتمعات الشمولية . وما لاحظته فى الولايات المتحدة أنه ليس فقط تظهر الرقابة بصورة مختلفة ، لكنها أيضاً تركز على نوع من الرقابة الأتوماتيكية . ما هو الدور الذى تؤديه كل من وسائل الإعلام والتعليم فى هذه العملية؟

تشومسكى : لقد بدأ ما تشير إليه بلفظ الرقابة الأتوماتيكية فى فترة مبكرة جداً من هذا العصر من خلال عملية تأهيل اجتماعية ، وهى أيضاً ضرب من ضروب الترويض ، التى تحطم الفكر المستقل لصالح الطاعة ، وتُعدّ المدارس آلية من آليات عملية التأهيل الاجتماعى تلك ، وأما الهدف من ذلك ، فهو إبقاء العامة بمنأى عن الأسئلة المهمة التى تدور حول قضايا مهمة تؤثر بصورة مباشرة فيهم وفى الآخرين .

فلا يتعلم الفرد فى المدرسة المحتوى فقط .

وكما ذكرت ، فى حالة ما إذا رغبت فى أن تصبح مدرساً للرياضيات ، لا تتعلم فقط الكثير عن الرياضيات - فعلاوة على ذلك فأنت تتعلم أيضاً كيفية التصرف ، والتأق بصورة ملائمة ، وأنواع الأسئلة التى قد تطرحها ، وكيف تتواءم ، والبيئة المحيطة بك ، (وأعنى بذلك كيف يتأنى لك أن تتكيف) ، إلى ما شابه ذلك .

وفى حالة إظهار أى فرد استقلالية شديدة وشروعه فى الارتياح فى أطر مهنته كثيراً سوف يتم استقصاؤه بعيداً عن منظومة الامتيازات ، ومن ثم سوف يتعلم فى مرحلة مبكرة أنه حتى تعتبر ناجحاً يتوجب عليك خدمة مصالح منظومة الترويض . يجب عليك أن تلزم الهدوء ، وتتخمد رؤوس تلاميذك بمعتقدات

ومبادئ سوف تخدم مصالح ذوى النفوذ الحقيقي ، وتمثل سلسلة المؤسسات فى الدولة طبقة رجال الأعمال ومصالحهم الخاصة . بيد أن المدارس تعد على كل حالة من الأحوال الأداة الوحيدة للترويض ، وبتراذف عمل مؤسسات أخرى معها ، وذلك لزيادة تعزيز عملية الترويض ، ومثال ذلك ما يبثه التليفزيون ؛ ليحشوه به رءوسنا .

فيعرض علينا التليفزيون سلسلة من البرامج الواهية مصممة للترفيه ، فى حين أن وظيفتها هى تشتيت ذهن العامة ؛ لجعلهم غير قادرين على فهم مشكلاتهم الأساسية ، أو تحديد مصادر مشكلاتهم ، لكن تعمل تلك البرامج الواهية عوضاً عن ذلك على تأهيل المشاهد اجتماعياً حتى يصبح مستهلكاً سلبيًا ، وتصبح إحدى الطرق للتعامل مع حياة خاوية الإنجاز ، مشاهدة المزيد والمزيد من تلك البرامج الواهية ، حيث تستغل البرامج المتطلبات العاطفية للشعب ، وتبقيهم بمنأى عن متطلبات الآخرين . ومع تزايد التخلي عن المجالات العامة ، تعمل المدارس وقليل من المجالات العامة الباقية على العمل حتى تجعل من الشعب مستهلكاً جيداً .

ماسيدو : يتناسب ذلك والاحتفاء الزائد بالفردية .

تشومسكى : لا أشاطرك رأى ، فأنا لا أراها ضرباً من ضروب الفردية ، حيث تتطلب الفردية فى أفضل حالاتها شكلاً من أشكال مسئولية الفرد عن أفعاله ، ويشجع هذا النوع من الترفيه الخالى من العقلانية الشعب على أن يتكيفوا على أن تقودهم الانفعالات والاندفاعات والغرائز ، والتى تحض على استهلاك المزيد . ووفقاً لذلك يتم إلحاق وسائل الإعلام والمدارس والثقافة الشعبية بجماعة العقلانية ، وهى الجماعات التى تأخذ على عاتقها عملية التخطيط واتخاذ القرار فى المجتمع ، ويقع على الجانب الآخر بقية المجتمع . وحتى تصبح ناجحاً - حسبما يذكر رينهولد نيبور - يلزم على «العقلانيين» الذى انضموا إلى « الطبقة المتخصصة» أن يبتكروا «الأوهام الضرورية» و«الإفراط فى التبسيط الذى يلعب

على أوتار الشعور»، وذلك حتى لا يزعجوا «القطيع المذهل» - الساذج المغفل - بتعقيد المشكلات الحقيقية، التي لن يكونوا على أى حال من الأحوال قادرين على حلها. ويهدف ذلك إلى عزل عامة الشعب عن القضايا الحقيقية، وبعضهم عن بعض .

ويجب إخماد أى محاولة لتنظيم أو لمد الأواصر مع جماعة ما، وتعتبر الرقابة - كما هو الحال فى الدول الشمولية - واقعا ملموسا جداً فى المجتمعات المفتوحة، بالرغم من أنها تظهر فى أشكال متعددة. وتعتبر الأسئلة التى تسيء أو تسبب الإحراج إلى المنظومة الترويضية، شيئاً خارجاً عن الحدود، ويتم حظر المعلومات غير الملائمة. ولا يجب عليك أن تنظر بعيداً إلى هذا الحد حتى تصل إلى هذه النتيجة، فكل ما يجب عليك هو أن تحلل بشكل أمين ما تفصح لك عنه وسائل الإعلام، وما تبقى فى حيز الكتمان، وأن تحاول بإخلاص استيعاب المعلومات المسموح بتداولها فى المدارس والمعلومات المحظورة. ويمكن لأى شخص ذى ذكاء عادى أن يرى كيف تتلاعب وسائل الإعلام، بل وتدير مقص رقابتها فى المعلومات التى لا تتوافق وذوقها، وقد يلزم بذل جهد لاكتشاف تشوه المعلومات أو حظرها، لكن كل ما تحتاج إليه هو الرغبة فى معرفة الحقيقة .

ولا يوجد سبب وراء عدم قدرة المثقفين على اتخاذ موقف مماثل إزاء حكومات العملاء التى تفرضها حكومتنا على أمريكا اللاتينية، كما يتخذون مع الأعداء، فكل ما يلزم هو الرغبة فى استخدام نفس النوع من الذكاء والحس المشترك، كما هو الحال عندما يعملون على تحليل وتقسيم الأفعال الوحشية التى يرتكبها أعداؤنا. وفى حالة ما إذا كانت المدرسة تخدم أغراض عامة الشعب، لكانوا قد زودوا العامة بأساليب الدفاع عن النفس، لكن قد يعنى ذلك تدريس حقيقة العالم والمجتمع. ولكان عليهم أن يكرسوا أنفسهم بحماسة شديدة، ورغبة فى تطبيق ما ناقشه بالضبط، وذلك من أجل أن يتكرر كل من نشأ فى مجتمع مفتوح وديمقراطى أساليب للدفاع عن النفس، ليس فقط ضد الجهاز الدعائى فى المجتمعات الشمولية التى تسيطر عليها الدولة، ولكن أيضاً ضد المنظومات الدعائية المتخصصة، والتى تشمل المدارس ووسائل الإعلام، والصحافة التى

تضبط الأجنحة، وصحف القضايا الفكرية، والتي تسيطر بشكل أساسى على المشروع التعليمى. ويجب أن نشير إلى من يمارسون سيطرتهم على الجهاز التعليمى بطريقة «المفوضين». ويمكن تعريف المفوضين بأنهم المفكرون الذين يكرسون عملهم وأولوياتهم إلى توسيع رقعة النظام الاجتماعى الذى يجنون الفائدة من ورائه، وجعله مشروعاً ومهيماً.

ويلزم على المفكرين الحقيقيين أن يبحثوا عن حقيقة الأمور المهمة ذات القيمة، ويجاهرُوا بها. ولم تغب تلك الحقيقة عن المفكرين الغربيين، الذين ليس لديهم أى مشكلة فى تطبيق المبادئ الأخلاقية الأساسية على الحالات التى تتضمن الأعداء الرسميين.

ماسيدو: يُعدّ هذا شكلاً من أشكال التوجيه الأخلاقى الانتقائى، وتزوّد أيضاً المشاركة فى هذا التوجيه الأخلاقى الانتقائى المفوضين بالأساس المنطقى، الذى يبرر اضطلاعهم فيما أشار إليه «تيودور أدورنو» بـ «الرفض القاسى لأن يروا». ولقد عشت فى كنف ديكتاتوريتين شديدتى الاختلاف، تنتمى إحداهما إلى أنتونيو سالازار فى البرتغال، والأخرى إلى فرانسيסקو فرانكو فى إسبانيا، وكانت الرقابة فى هذين النظامين الشموليين واضحة، لا يمكن أن نخطئها، وتسيطر عليها قوات الشرطة. وبلاستناد لتجربتى فى الولايات المتحدة وديمقراطيتها؛ تعتبر الرقابة أكثر انتشاراً، وغالباً ما يتم ممارستها دون وعى أو من خلال زملاء (ويشمل ذلك الطلاب) فى حيز العمل.

وبمناسبة الحديث عن الديمقراطية، أليس من المثير للسخرية أن المدارس بالولايات المتحدة لا تزال غير ديمقراطية لحد بعيد، فى الدولة التى تتباهى بكونها أول وأكثر المجتمعات ديمقراطية فى العالم الأول؟ فى حين أنها لا تزال غير ديمقراطية، ليس فقط فيما يختص بهيكل حاكميها (على سبيل المثال يتم تعيين ناظر المدرسة دون انتخابه)، ولكن أيضاً فيما يختص بكونها مواقع لفرز الأيديولوجيات المهيمنة التى بدورها لا تشجع على التفكير المستقل والنقدى.

ومع العلم بطبيعة المدارس غير الديمقراطية، كيف يتسنى للمدارس إثارة التفكير النقدى فيما يخص قدرة الطالب على الابتكار، وفضوله، واحتياجاته؟

تشومسكى : توافرت بدائل للمدارس غير الديمقراطية الموجودة فى العصر الحالى ، والتي ذكرتها توأ ، وبالنسبة لى فلقد كنت محظوظا جداً لالتحاقى بمدرسة اتخذت من المثل الديمقراطية أساساً ، حيث كان تأثير أفكار چون ديوى ظاهراً جداً ، وكانوا يشجعون الأطفال هناك على الدراسة والبحث لاكتشاف الحقيقة بأنفسهم ، وبالطبع تصبح أى مدرسة تفرض تعليم الديمقراطية محل شك . وكلما أصبحت المدارس أقل ديمقراطية ، زاد احتياجها لتدريس المثل الديمقراطية . وإذا كانت المدارس بالفعل ديمقراطية ، بمعنى أنها تتيح الفرصة للأطفال أن يمارسوا الديمقراطية من خلال الممارسة ، لن يشعروا بأنهم فى احتياج لحشورء وسهم بتفاهات عن الديمقراطية ، وأشعر أيضاً بأن الحظ حليفى ؛ لأن تجربتى فى المدرسة لم تركز على حفظ أكاذيب عن روعة الديمقراطية .

لكن لم يمتد تأثير چون ديوى لكل المدارس ، بالرغم من أنه كان أحد زعماء الليبرالية فى أمريكا الشمالية ، وأحد فلاسفة القرن العشرين .

وأذكر أيضاً أنه عندما كنت صبياً ، شغلت منصب مستشار فى أحد المعسكرات الصيفية ، وغالباً ما لمست نجاح عملية الترويض ، والتي تضاهى ترديد ميثاق الولاء ، الذى وصفته آنفاً .

وأذكر أنى كنت أرى بعض الأطفال تجيش بهم المشاعر ، وقد يبكى بعضهم عند ترديد الأغانى العبرية الوطنية ، التى حتى لم يفهموها ، وقد يفهم بعض الأطفال معنى كلمات بطريقة خاطئة تماماً ، إلا أن ذلك لم يشبط من حالتهم الشعورية . وأنه لأمر مسلم به ألا يقتصر التعليم الديمقراطى على حشو الرءوس بالمبادئ الوطنية ، أو حفظ مثل الديمقراطية عن ظهر قلب . ونحن على دراية بأن الطلاب لا يتعلمون بهذه الطريقة ، فيبدأ التعليم الحقيقى عندما ندعو الطلبة إلى أن يكتشفوا بأنفسهم طبيعة الديمقراطية ، وكيف تعمل .

وتعد أفضل طريقة لاكتشاف كيف تعمل الديمقراطية هى ممارستها . المدارس لا تقوم بذلك على نحو جيد . ويعتبر مقياس عمل الديمقراطية فى المدارس والمجتمع هو مدى تقارب الواقع مع النظرية ، وكما نعلم هناك بون شاسع يفصل

المدرسة عن المجتمع . فيمكن نظرياً لكل فرد في المنظومة الديمقراطية أن يشارك في اتخاذ القرارات التي تتعلق بحياته ، وأن يقرر كيف تحصل الدولة على الدخل العام وكيف تستخدمه ، وما هي السياسة الخارجية التي يجب أن يتبعها المجتمع ، إلى ما شابه ذلك . ولسوف يوضح اختبار بسيط الفجوة بين النظرية التي تقضى بأنه يمكن لكل فرد أن يشارك في اتخاذ القرارات التي تتعلق بحياته ، والتطبيق ، حيث يعمل اقتصار السلطة على المستويات الحكومية على كبح الأفراد والجماعات ، عن تدبر أمورهم ، أو - على سبيل المثال - عن تحديد شكل السياسة الخارجية التي يرغبون في اعتناقها .

فلنتناول القصف الحالى لكوسوفا والعراق بالدراسة ، فكان الوضع رهيباً في كوسوفا قبل قصفها في الرابع والعشرين من مارس ، وذلك أقل ما يمكن وصفه به ، ثم بدأ قصفها في الرابع والعشرين من مارس ، وفي غضون أيام قليلة ظهر آلاف من اللاجئين من كوسوفا ، وتزايدت نسبة الاغتصاب بشكل مأسوى ، وكذلك القتل الجماعى والتعذيب ، ويعتبر ذلك نتيجة مباشرة ومتوقعة لقصف تم تنفيذه تحت ستار محاولة إنسانية لحماية الألبان ، ولا يتطلب مجهوداً كبيراً أن نكتشف أن الوضع الذى كان قبل القصف رهيباً ، أصبح كارثة بعد القصف ؛ لأنه تم تصعيد الموقف الرهيب في كوسوفا إلى كارثة بعد «التدخل الإنسانى» للنااتو (حلف الشمال الأطلنطى) ، وبما أنها تتبع خطى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، فلقد زعم النااتو حقه في « التدخل الإنسانى » ؛ لوقف التطهير العرقى للألبان . وكما هو واضح للعيان ؛ قاد قصف النااتو بشكل مباشر إلى زيادة مريعة في التطهير العرقى ، والمذابح في كوسوفا ، وأفضى أيضاً إلى زيادة كبيرة جداً في معدلات القتل والاغتصاب وتعذيب الألبان .

وبالفعل ذلك ليس بالمفاجأة . ففي الواقع أخبر القائد العام لحلف شمال الأطلنطى الصحافة في إحدى المرات أن تلك كانت نتيجة «متوقعة تماماً» للقصف .

وإذا قمنا بتعميم نفس الجدل الذى برر «التدخل الإنسانى» في كوسوفا ،

فسوف يقصف حلف شمال الأطلسي دولاً أخرى مثل كولومبيا على سبيل المثال، بل وبعض أعضائه مثل تركيا. وطبقاً لتقارير وزارة الخارجية يماثل تقريباً المعدل السنوي للاغتيالات السياسية على أيدي رجال الحكومة والبرلمان في كولومبيا، ذلك المعدل في كوسوفا، قبل أن يقصفها الناتو، وهرب أيضاً ما يزيد على مليون لاجئ من العمليات الوحشية، التي يتم اقتراحها.

وكانت كولومبيا أكثر دولة غربية تلقت أسلحة وتدريباً أمريكياً، مع تزايد موجة العنف في حقبة التسعينيات، ويزداد حجم هذه المساعدات تحت شعار: «الحرب على المخدرات»، وهي ذريعة رفضها جميع المراقبين الجادين. وأثنت حكومة كلينتون - على وجه الخصوص - بسخاء على رئيس كولومبيا سيزار جاثيريا، الذي تسبب طول مدة اعتقاله لهذا المنصب - طبقاً لما ذكرته تقارير منظمات حقوق الإنسان - في ظهور «معدلات عنف مريعة».

وبالنظر إلى تركيا، نجد أن حد قمع الأكراد في حقبة التسعينيات قد فاق معدلاته في كوسوفا، قبل قصف حلف شمال الأطلسي لها، ولقد بلغ هذا الوضع أوجه في منتصف التسعينيات، وأحد الأدلة على ذلك هروب أكثر من مليون كردي من قرى الريف إلى العاصمة الكردية الرسمية (ديار بكر) في الفترة (١٩٩٠ - ١٩٩٤م)؛ وذلك لأن الجيش التركي كان يدمر قرى الريف.

وفي عام (١٩٩٤م) تم ضرب رقمين قياسيين: فكما أعلن جوناثان راندال من موقع الأحداث «كان ذلك أسوأ عام لقمع المناطق الكردية بتركيا»، وكذلك كان العام الذي أصبحت فيه تركيا «أكبر مستورد للمنتجات الحربية الثقيلة الأمريكية الصنع، وبذلك أصبحت أكبر مشتر عالمي للأسلحة»، وعندما فضحت جماعات حقوق الإنسان استخدام تركيا للنفايات الأمريكية الصنع لقصف القرى، وجدت إدارة كلينتون سبلاً لتلافي القوانين التي تطالب بإرجاء تسليم الأسلحة، ويمثل ذلك ما كانت تقوم به في إندونيسيا ومناطق أخرى. وإذا اتبعنا نفس هذا الجدل الخاص بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والذي يردده حلف شمال الأطلسي لتبرير قصف كوسوفا، فسوف يكون لحلف شمال الأطلسي مبرر أكبر لقصف واشنطن.

ولسوف أتناول الآن قضية «لاوس» : فلقد تم الفتك بآلاف من البشر أغلبهم من الأطفال والمزارعين الفقراء على مر سنوات طويلة ، فى سهول جازز فى شمالى لاوس ، والتي شهدت أثقل قصف للمدنيين فى التاريخ ، وأكثره قسوة . ولم يكن هجوم واشنطن الغاضب على مجتمع قروى فقير ، يرتبط بحروبها فى المنطقة . بدأت أسوأ الفترات عام (١٩٦٨م) عندما تم إجبار واشنطن على إجراء مفاوضات «تحت ضغط من قبل الشعب ورجال الأعمال» ؛ لإنهاء القصف المطرد لفيتنام الشمالية . قرر هنرى كسينجر وريتشارد نيكسون أن يغيرا وجهة الطائرات ؛ لقصف لاوس وكمبوديا !

ونجحت الوفيات من جراء أسلحة من نوع بومبى (Bombies) ، وهى نوع من الأسلحة لا تتطلب من يقوم بإطلاقها ، وذات تأثير أسوأ من الألغام الأرضية ، فهى مصممة خصيصاً لقتل البشر ، وليس لها أى تأثير على الناقلات والمباني . . . وما شابه ذلك . ولقد تم نثر مئات الملايين من تلك الأسلحة الفتاكة على السهل ، حتى وصل إلى مرحلة التشبع ، وطبقاً لتقرير مُصنَّع الألغام (هنى ويل) : نسبة الفشل فى الانفجار تتراوح ما بين ٢٠ إلى ٣٠ فى المائة ، وتشير هذه الأرقام إما إلى جودة منخفضة بشكل ملحوظ ، وإما إلى سياسة للفتك بالمدنيين بالأجل . وتعد أسلحة بومبى جزءاً ضئيلاً من وسائل الفتك التكنولوجية التى نثرها والتى تضمنت صواريخ متقدمة ؛ لاختراق الكهوف التى احتمت بداخلها العائلات .

كما أعلن المراسل الآسيوى الشهير «بارى وين» فى النسخة الآسيوية لصحيفة وول ستريت : يتراوح عدد الإصابات من أسلحة «بومبى» من بضع مئات إلى عشرين ألفاً سنوياً على مستوى البلد ، ويموت أكثر من نصف المصابين . وأوضحت التقديرات الدقيقة فى ذلك الوقت أن الأزمة على مدار العام السابق فقط ، كانت تقريباً مشابهة للوضع فى كوسوفا قبل القصف ، وبلغت معدلات وفيات الأطفال أوجها ، حيث بلغت أكثر من النصف ، وذلك تبعاً لتحليل الموقف الذى قدمته لجنة مينونيت المركزية ، والتى كانت تعمل هناك منذ عام (١٩٧٧م) من أجل تخفيف حدة الأفعال الوحشية المتواصلة .

ولقد أبدت وسائل الإعلام الأمريكية استحساناً كبيراً إزاء تدخل حلف شمال الأطلسي في كوسوفا؛ لوقف التطهير العرقي للألبان، حتى ولو نجم القصف عن زيادة معدلات التطهير العرقي، والأفعال الوحشية الأخرى التي يتم ارتكابها ضد هذا الشعب. لكن في حالة لاوس، والتي كنا فيها مسئولين بشكل مباشر عن الوفيات، كان رد فعل الولايات المتحدة: أنها لم تحرك ساكناً! ولزمت وسائل الإعلام والمعلقون الصمت، وذلك طبقاً لمعايير شن الحرب على لاوس، والتي تم تصنيفها على أنها «حرب سرية» ويعنى ذلك أنها حرب معروفة تماماً، لكن تتوارى عن الإعلام. ويمثل ذلك الوضع في كمبوديا بعد مارس (١٩٦٩م).

وكان - ولا يزال - معدل الرقابة الذاتية غير مسبوق في ذلك الوقت. وتعتبر صلة هذا المثل المخيف لما أردده واضحة، فبينما أخذت وسائل الإعلام الأمريكية في الإشارة باستفاضة إلى إدانة المحكمة الدولية لـ [سلوودان ميلوسوفيتش] لجرائمه ضد الإنسانية، لا يزال «هنري كيسنجر» وهو أحد الرؤوس المدبرة لمذبحة لاوس حراً طليقاً، بل ويحتفون به كخبير ركزت وسائل الإعلام بشغف على آرائه في قصف كوسوفا.

وفي حالة العراق فالوحشية والفظائع بارزة للعيان، حيث يتم الفتك بالمدنيين بأسلحة بيولوجية غادرة خبيثة. وعلقت وزيرة الخارجية الأمريكية [أولبرايت] في التلفزيون القومي عام (١٩٩٦م)، عندما سألوها عن رد فعلها إزاء الفتك بنصف مليون من الأطفال العراقيين خلال خمس سنوات قاتلة: «نعتقد أن الهدف يستحق الثمن».

وطبقاً للتقديرات الحالية يتم قتل نحو أربعة آلاف طفل شهرياً، حتى وقتنا الحالي (*). ولا يزال الهدف «يستحق» الثمن.

ويميط التحليل الدقيق لحرب العراق اللثام عن نفس المبادئ الإرشادية عن «التدخل الإنساني» للولايات المتحدة، أو التدخل للحفاظ على «الديمقراطية»

(*) يونيو ١٩٩٩.

فى جميع أنحاء العالم . ورددت وسائل الإعلام والطبقات المتعلمة بإخلاص قول الرئيس جورج بوش [الأب]: «تتصدى أمريكا - كما تفعل على الدوام - للعنف، ولمن يلجأ لاستخدام القوة لإحلالها محل أحكام القانون» حتى ولو كان قد انتهك منذ شهور قليلة ماضية المبادئ الأمريكية التى تتصدى للعنف ولمن قد يلجأ لاستخدام القوة لإحلالها محل أحكام القانون، وذلك عندما قام بغزو بنما .

وكان الرئيس بوش أول رئيس أمريكى تتهمه محكمة العدل الدولية «باستخدام القوة بشكل غير قانونى»، وذلك فى حرب واشنطن ضد نيكارا جوا . وادعاء بوش بتمسكه بالمثل العليا كان مزحة .

ولم يكن السبب وراء رد الفعل غير المسبوق إزاء ما فعله صدام حسين بسبب عدوانه الوحشى، لكنه كان بسبب أنه اتخذ مساراً خاطئاً، مثلما فعل مانويل نورييجا، منذ عدة سنوات قليلة ماضية، فكلاهما بلطجى وكلاهما صديق للرئيس جورج بوش .

ويعد صدام حسين رجل عصابات مهووس بالقتل، وكانت تلك تماماً هى طبيعته قبل حرب الخليج عندما كان صديقاً لنا، وشريكنا التجارى المفضل . وكان غزوه للكويت دون شك عملاً وحشياً، لكنه لا يضاهى الأعمال الوحشية التى اقترفها بمساندة الولايات المتحدة، بل يقع ذاك الغزو فى حيز أعمال إجرامية قادتها الولايات المتحدة وحلفاؤها .

على سبيل المثال، بلغت معدلات الإبادة التى نجمت عن غزو إندونيسيا وضمها لتييمور الشرقية تقريباً نفس المعدلات سالفة الذكر .

فلقد تم الفتك بربع تعداد السكان (٧٠٠ ألف نسمة)، فى حين فاقت معدلات الفتك مثيلتها فى پول پوت، ذلك بالنظر لتعداد السكان فى نفس ذاك العام، ولقد أيدت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها تلك الأعمال الوحشية، وبرر وزير الخارجية الأسترالى إذعانه للغزو وضم تيمور الشرقية ببساطة بقوله: «إن العالم رقعة لا يسودها العدل، ويلوثها نماذج الاستحواذ عن طريق استخدام القوة» بيد أنه عندما غزت العراق الكويت شجبت حكومته الغزو بإعلانه تصريحاً

شديد اللهجة قائلاً فيه : « لا يمكن للدول الكبرى غزو جيرانها الصغار وأن تنجو بفعلتها تلك ». وكان مصدر الاهتمام الحقيقي لسياسة الولايات المتحدة في منطقة الخليج ، هو أن تظل موارد الطاقة في الشرق الأوسط ، والتي لا تضاهيها أية مصادر أخرى في أى بقعة من بقاع العالم ، تحت سيطرتنا ، وأن تساعد الفوائد العظيمة التي يجنونها في دعم اقتصاديات الولايات المتحدة وعميلها البريطانى .

ماسيدو : دون شك يثير هذا الوضع الشجون ؛ لأنه بالرغم من أن الحقائق التي ذكرتها واضحة جداً للعيان ، لم يكن بمقدور الطبقة المتعلمة بالولايات المتحدة - باستثناء قلة قليلة منها - أن تربط فيما بين الأحداث بشكل تاريخي ، كما كان من المفروض منها حتى تفهم العالم بدقة ، ووصف نائب الرئيس (دان كويل) حرب الخليج بطريقة صحيحة - إن لم تكن غير مقصودة - عندما نعتها بأنها « نصر مشير أحرزته قوات العدوان » .

وزل لسان الرئيس بوش في فخ عويص مماثل ، في أثناء حوار أجراه مع مذبةعة الأخبار «ناتالى جاكوبسون» على القناة الخامسة لتلفزيون بوسطن . فلقد صرح الرئيس بوش عند الإشارة إلى حرب الخليج قائلاً : «لقد نفذنا عدواننا» (بدلاً مما أراد دون شك قوله وهو «نفذنا مهمتنا») وتجرد الكلمات - التي أفلت لسان كل من بوش وكويل في قولهما - تعليماً قائماً على أكاذيب كبرى ، بلغ حد أن تصريحاتهما أصبحت - عندما نصفها بشكل دقيق - تماثل قوله خوزيه أورتيجا واى جاسين : «أن ما ندعوه حضارتنا ، إذا «تركناها لوسائلها وأدواتها» ، وتركناها تحت رحمة المفوضين أمثال هنرى كيسنجر ، فلسوف تعيد ولادة البدائية والبربرية» .

وتشير الأمثال التي سقتها عن الأفعال البربرية التي تم ارتكابها في كوسوفا وتركيا وكمبوديا ولاوس إلى بربرية الحضارة .

وفى كثير من الأحوال ، تم استغلال المستوى الحالى من التكنولوجيا التي أحرزتها ما تسمى حضارتنا فى أكثر الأفعال همجية ، والدليل على ذلك إعدام اليهود بالغاز ، وقصف لاوس وكمبوديا .

ولن تكون بالطبع حضارة مستنيرة تلك التي تتباهى بجعل العراق يتقهقر إلى عصر ما قبل الصناعة - تفتك بعشرات الآلاف من الضحايا البريئة شاملة بذلك النساء والأطفال، في حين تترك صدام حسين الذي كان هدفنا من شن الحرب رئيساً للبلاد .

تشومسكى : كان متوقعاً جداً ترك الحركة العسكرية التي قادتها الولايات المتحدة طاغية العراق المهيوس بالفتك يتمتع بالسلطة ، وأن يواصل تنفيذ برنامج التسليح الخاص به ، في حين تقوض التفتيش الدولي كمخرج من المشكلة . ويجب أيضاً إيضاح أن أكثر الجرائم التي ارتكبها صدام حسين وحشية ، هي تلك التي اقترفها عندما كان الحليف التجارى المفضل لدى الولايات المتحدة ، ألا وهي - وذلك بعد إخراجها مباشرة من الكويت - عندما راقبته الولايات المتحدة بهدوء عندما شرع في ذبح متمردي العراق ، وهم الشيعة ، وانتهى بالأكراد - وأنها حتى رفضت أن تسمح لهم بأن يستولوا على الأسلحة العراقية التي أصبحت في حوزة القوات الأمريكية(*) .

وقلما تظهر الروايات الرسمية صورة صحيحة عما يحدث ، ولكنها أيضاً لا تستطيع حجب الحقيقة عن من يريد معرفتها . وينبغي على التعليم الذى يسعى إلى عالم ديمقراطى أن يزود الطلاب بأدوات نقدية حتى يربطوا فيما بين الأحداث ، مما قد يكشف الأكاذيب والخداع . وبدلاً من ترويض الطلبة بالأساطير الديمقراطية ، يجب على المدارس أن تجعلهم ينغمسون فى ممارسة الديمقراطية .

ماسيدو : إنه لشيء غير محتمل أن تتوقف المدارس عن ترويض الطلاب من خلال حشورء وسهم بالأساطير ؛ لأنه عن طريق قوة ترويج الأساطير تحاول الأيديولوجيا المهيمنة أن تكبت إظهار أى ديمقراطية ثقافية حقيقية ، وتحافظ على الهيمنة الثقافية الاقتصادية الحالية . وأساطيرك الرأى أنه ينبغي على المدارس أن تدفع الطلاب لممارسة الديمقراطية . بيد أنه من أجل تحقيق ذلك كما أشرت مرات

(*) هل كان إثارة الشيعة والأكراد لينتفضوا ضد صدام ، ثم التخلّى عنهم ليذبحهم ، خطة أمريكية لاستمالتهم إلى صفها بعد ذلك فى غزوها الأخير للعراق؟ - المترجمة .

عديدة؛ يجب أن تزود المدارس طلابها بالأدوات النقدية التي تمكنهم من تفرغ المحتوى الأيديولوجي للأساطير حتى يتمكنوا من أن يفهموا بصورة أفضل -على سبيل المثال- السبب الذي دفع مدرس وناظر الطالب دافيد سبريتزلر -الذين أسرفا كثيراً في المنظومة الترويضية المهيمنة- أن يشطا بعيداً، ويضحيان بالجوهر الذي أقيم عليه ميثاق الولاء من أجل أن منع هذا الطالب من العيش في الحقيقة، والسبب أن من يرغب في العيش في ظل الحقيقة يمثل تهديداً حقيقياً لمنظومة الترويض المهيمنة، ويجب إقصاؤه من المجتمع أو على الأقل جعله عنصراً محايداً. ومن ثم يجب ألا يندهش المرء عندما يرى مدرسا وناظرا يحاولان منع الطالب دافيد سبريتزلر من الإشارة إلى الرياء والفرقة فيما بين طبقات المجتمع، في مجتمعنا المفترض أنه غير طبقي.

تشومسكى : تعتبر أسطورة أننا نعيش في مجتمع غير طبقي مزحة(*)، لكنها مزحة يصدقها أغلب الشعب. وأفضت لى ابنتى التى تقوم بالتدريس فى كلية تابعة للدولة أن أغلب طلابها يعتبرون أنفسهم من أبناء الطبقة الوسطى، وأنهم لا يظهرون أى شعور بالطبقة.

ماسيدو : يشير الخطاب الأكاديمي البحث لانعدام الشعور بالطبقة، فى حين أنك تسمع وسائل الإعلام تستخدم مصطلح «الطبقة العاملة» وكذلك مصطلح «الطبقة الوسطى»: (مثل: «هدنة الضرائب بالنسبة للطبقة الوسطى»)، لكنك لا تسمع أبداً من يشير إلى «الطبقة الحاكمة» أو «الطبقة العليا».

تشومسكى : بالتأكيد لن تجد مصطلح «الطبقة الحاكمة»؛ لأنه يتم حظره، ولا يعتبر الطلاب الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة - مثل هؤلاء الذين يدرسون فى فصول ابنتى - أنفسهم ينتمون إلى الطبقة العاملة، وهذه إمارة أخرى للترويض الحقيقى.

(*) أثار إعصار كاترينا فى سبتمبر ٢٠٠٥م أحاديث كثيرة عن أمريكا العنصرية وأمريكا الطبقة داخل وخارج أمريكا، حتى ذهبت كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية السوداء إلى نيواورليانز لتنفى العرقية عن أمريكا، أما عمدة نيواورليانز، وهو أيضاً أسود، فصرح أنها مسألة طبقة وليست مسألة عرق - المترجمة.

ماسيدو : شطت الصفوة الحاكمة بمساعدة أهل الفكر بدرجة تبتدع فيها آليات تبقى على أسطورة أن الولايات المتحدة مجتمع غير طبقى .

وبالرغم من كل الجدل الخاص بفشل التعليم فى هذه الدولة ، لا يتم أبداً ذكر متغير واحد ألا وهو الطبقة ، بالرغم من أن الطبقة عامل محدد للنجاح فى المدرسة . وينتمى - على وجه العموم - أكثر الطلاب رسوباً إلى الطبقة الدنيا فى المجتمع ، لكن يتحاشى القائلون على العملية التعليمية استخدام الطبقة بوصفها عاملاً فى تحليلاتهم وقراراتهم ، وعوضاً عن ذلك يبتدعون جميع أنواع المصطلحات التى تبسط الأمر ، مثل الطلبة «المهمشين اقتصادياً» ، أو «المعوزين» ، أو «الذين يحف بهم الخطر» ، إلى ما شابه ذلك من مصطلحات ، وذلك كوسيلة لتلافى تسمية حقيقة الظلم الطبقي .

وفى حالة استخدامك لكلمة طبقة ، عند قيامك بتحليل سياسى أو اقتصادى أو غيره ، سوف يتهمونك فوراً أنك تريد حرباً طبقية . ألا تذكر الحملة الرئاسية فى عام (١٩٨٨م) ، عندما وبخ الرئيس بوش خصمه الديمقراطى بقوله : «لن أدع هذا الحاكم الليبرالى يفسخ هذه الأمة . . . أعتقد أن الديمقراطيات الأوروبية ، أو التى تقع فى دولة أخرى تسمح بذلك ؛ لكن الوضع لا ينطبق على الولايات المتحدة الأمريكية . لن تفسخنا الطبقيّة . . . فنحن أرض الأحلام الكبرى ، والفرص العظيمة ، والعدالة ، وسوف تفشل هذه المحاولة لتقسيم الكيان الأمريكى بإثارة الطبقيّة ؛ لأن الأمريكيين مدركون أننا دولة مميزة جداً ؛ لأنه إذا اتاحت الفرصة لأى فرد ، فبمقدوره استغلالها ، وتحقيق الحلم الأمريكى» .

تشومسكى : حقاً تصير الدولة مميزة جداً فى حالة ما إذا كنت ثرياً ، ولأذكر مثلاً واحداً على ذلك . انظر كيف يتزايد تخلف نظام الضرائب ، فى الوقت الذى يُزيد ثراء الأغنياء من خلال خفض ضرائبى كبير ، ومن خلال الدعم - التاريخى - للمؤسسات الكبيرة . ولقد كان بوش على صواب عندما تكلم عن الحرب الطبقيّة ؛ بيد أنها تعد حرباً طبقية خططوا لها ، لسحق الفقراء أكثر فأكثر ، وتوضيح

جميع المؤشرات أنه ما زالت نسبة فقر الأطفال مرتفعة، وأصبحت حالات سوء التغذية أكثر سوءاً فى ظل برامج يتم تنفيذها؛ لزيادة «قيم الأسرة» .

وفاقم الهجوم على الإعانات التى تقدمها الدولة للفقراء من سحق الفقراء، والأمهات اللاتى يتلقينها والآخرين من المعوزين، فى حين لم يمسوا أبداً أصحاب النفوذ؛ لأنهم يدعمون المؤسسات الكبرى بأموال طائلة .

فلدينا بالفعل معونة تقدمها الدولة، لكنها معونة موجهة للأثرياء، وحتى تضمن الإبقاء على المعونة التى تقدمها الدولة للأثرياء تعمل بشكل جيد، يلزم أن تتوافر طبقة من رجال الأعمال واعية جداً، ويجب أن يقنع باقى أفراد الشعب بأنهم يحيون فى ظل مجتمع غير طبقى، ولقد أدت المدارس -دوماً- دوراً فى الإبقاء على هذه الأسطورة حية .
